الطريق إلى هداية الدين
(مقالة)
2002/12/16

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

الدين الإسلامي
هدي رباني أنزله الله تعالى إلى الأرض ، سَاقَ الإنسانَ به إلى خيره وسعادته في العاجل والآجل .
و لِنَتَعَرَّفَ إلى جوانب هداية الدين الإسلامي للإنسان علينا أن نعلم أنها جوانب ثلاثة :
جانب: يقوّم في الإنسان سلوكه وأعماله الظاهرة بين الناس ، فينظم ظاهره وجسدَه ، ويدله على أفضل سلوك .
وجانب : يزكي باطن الإنسان ويخرجه من الاضطراب فيورثه راحة القلب ، وينتج فيه الأخلاق الحميدة .
وجانب : يسمو بالإنسان إلى حقيقة وحدانية الله تعالى ، ثم يجعله في حالةٍ من الوصال والمحبة والأنس بربه .
و تاريخ الدين ابتدأ منذ خلق الله تعالى الإنسان الأول آدم ، قال تعالى :
(وعلم آدم)
وقال تعالى :
(فتلقى آدم من ربه كلمات).
ثمّ جاء الرسل عليهم الصلاة والسلام رسولاً بعد رسول يذكرون الإنسان بما نسيه من هذا الدين ، قال تعالى :
شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (13) (سورة الشورى 13.)
واشترك الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، في توجيه الإنسان إلى الجانبين الثاني والثالث بالمضمون نفسه .
و كان الجانب الأول - المتمثل بالقوانين المنظمة لسلوك الإنسان - مختلفاً بينهم ومتطوراً، لاختلاف الظروف المحيطة بالإنسان عبر الأزمنة المتتابعة ، فكان الإنسان في كل زمانٍ يخاطب بما يناسبه في ذلك الزمن.
ولما أراد الله سبحانه وتعالى هداية الإنسان في الزمان الأخير ؛ أرسل الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل معه القرآن ليكون صالحاً في توجيهه مدة بقاء الإنسان على الأرض إلى آخر الأزمنة ، وكان الجانب الأول من دين الله تعالى الذي يقّوم في الإنسان سلوكه وأعماله الظاهرة مبيناً فيما يعرف بأحكام الفقه الإسلامي .

ولن يكون الإنسان صالحاً ، أو مؤديًا لوظيفته على أحسن صورة ، إلا حينما يستفيد من جوانب الدين الثلاثة معاً .
وما نراه اليوم من الاضطراب الشديد والضعف وفقدان الوظيفة الإنسانية في البلاد الإسلامية إنّما هو راجعٌ لبعد المسلمين عن الاهتداء بجوانب الدين الثلاثة معاً حيث يأخذون بعضها ويتركون بعضها الآخر .

ولتحقيق الفائدة على وجهها الأكمل لا بد أن يكون الإنسان مهتدياً بهداية الدين في جماعة ، لا أن يبحث عن تلك الهداية منفرداً .
فقد خلق الله تعالى الإنسان كائناً اجتماعياً ، وما جعلت السجون إلاّ لعزل الأشرار عن الناس ..
و وجود الإنسان في تجمع يتصف بمقصودٍ مشتركٍ مضمونُه الانتفاع بهداية الدين هو أفضل من محاولاته الفردية للوصول إلى ذلك الانتفاع ..
قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (رواه الإمام أحمد في مسنده .) (الجماعة رحمة والفرقة عذاب) وقال صلى الله عليه وسلم (رواه النسائي في سننه .) (يد الله على الجماعة) وفي رواية (رواه الترمذي .) (يد الله مع الجماعة)
وقال صلى الله عليه وسلم : (الشيطان يهم بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم)(رواه الديلمي .)
ويشهد لهذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : (الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب) (أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وقال السيوطي في الجامع الصغير: صحيح .)
وقال صلى الله عليه وسلم :
(من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد) (أخرجه الديلمي عن ابن عمر كذا في كنز العمال الحديث رقم 1033 ، وأخرجه أحمد في مسنده في حديث طويل .)

وربما يتوهم البعض أن تحقق الهداية الدينية حصل في عصر النبي صلى الله عليه وسلم في تجمع خاص وفي ظروفٍ مساعدة ، ثمّ هو بعد ذلك متعذر بسبب نشوء مستجدات تحيط بالإنسان في الزمن الحاضر لكن هذا الوهم يرده ما تواتر عنه صلى الله عليه وسلم (حكى تواتر الحديث صاحب كتاب اقتضاء الصراط المستقيم .) :
(لا تزال من أمتي طائفةٌ ظاهرةٌ على الحق حتى تقوم الساعة) (أورده مسلم وكثير من أصحاب السنن .)
وقال صلى الله عليه وسلم :
(مثل أمتي مثلٌ كالمطر يجعل الله في أوله خيراً وفي آخره خيراً) (انظر زيادة الجامع الصغير.)
وفي رواية :
(مثلُ أمتي مثلُ المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) (أخرجه الترمذي .)
وقال صلى الله عليه وسلم :

(إن الدين بدأ غريباً و يرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي) (أخرجه الترمذي .)
فدل ما تقدم على أن هداية الدين محققة في كل زمان ، ومن خلال اجتماع يرضاه الله ورسوله .
وروى المقداد بن الأسود عنه صلى الله عليه وسلم قوله :
(لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخل الله عليهم كلمة الإسلام) (أخرجه احمد والطبراني وغيرهما .) ...الحديث .
وفي رواية تميم الداري عنه صلى الله عليه وسلم :
(ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله عز وجل بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين) (أخرجه أحمد الطبراني والحاكم وغيرهم .) الحديث .
وقد نتساءل من أين يبدأ الإنسان إذا أراد هداية الدين ؟
والجواب أنه يبدأ إذا أصبح مقصوده الأول مرتفعاً فوق دائرة المادة .
فالإنسان الذي حُرم من الدين يَغلب عليه المقصود المادي ، فيسعى إلى إشباع لذائذ جسده ، وإرواء غرور نفسه ، وذلك بتكثير المال ، وإشباع الغريزة من أي طريق كان ، والتسلطِ على الناس ، حتى يصبح ذلك رغبتَه الأولى ، ومقصودَ حياته الأكبر .
وفرقٌ بين حصول الإنسان على ضرورياته وحاجياته ولديه تطلع إلى ما هو أسمى وأعلى ؛ وبين أن يكون حصوله على تلك الأمور المادية مقصودَ حياته الأول .
فلا يقطع الإنسانَ عن كمال إنسانيته أن يتزوج أو يأكل أويشرب أويسكن المسكن المريح ، لكنَّ شرط الوصول إلى كمال إنسانيته أن لا تكون هذه الأمور مقاصدَه الأولى .
فطريق الارتقاء إذاً يبدأ بظهور مقصودٍ إنساني يرتقي به فوق تلك المقاصدِ المادية .
قال الله تعالى في القرآن الكريم :
(فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا) (سورة النجم .)
وقال تعالى :
(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً) (سورة الإسراء .)
وهذا المقصود السامي الذي يسبق المقاصد الاعتيادية في الإنسان لن يظهر إلاّ حينما يؤمنُ أن له خالقاً خلقه وأنعم عليه ، وحين يؤمن أن بعد هذه الحياة الدنيا حياةً أخرى فيها دار للنعيم تسمى الجنّة ، وفيها دار للشقاء تسمى النار .
وحينما بعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وكلفه بدعوة الناس إلى الله تعالى قال له:
(وللآخرة خير لك من الأولى) ..
ولن يستطيع الإنسان تجاوز مقاصده الاعتيادية إلى مقصوده السامي الجديد ؛ إلا إذا انطلق من القاعدة التي تقول :
(إن الآخرة التي سيرحل إليها خير من الدنيا الحاضرة لديه) .
فإذا نشأ في باطن الإنسان إحساسٌ بذلك المغيب المنتظر ؛ ثم نظر بعد ذلك إلى جميل معاملةِ خالقه له حيث خلقه إنساناً سويا ، وهيأ له نعماً كثيرة ، ووعده في الآجل بنعم كبيرة منتظرة ، فلربما يجد لديه بعد ذلك مقصوداً أعلى وأسمى من ذلك المقصود الذي حصل له عند تعلقه بنعيم الآخرة الموعود ، ولربما استشعر نوعاً من أنواع المحبة لذلك المنعم الذي خلقه وأكرمه ، ويجد في قلبه شوقاً إلى معرفته ، فيرتقي إلى مقصودٍ يَسبق كل ما تقدم من المقاصد العاجلة والآجلة حين تظهر فيه إرادته لربه .
قال تعالى في كتابه الكريم :
(فآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) (سورة الروم .)
وتكفي هذه الشهادة بالفلاح التام لأولئك الذين أرادوا الله تعالى .
إنه الصنف الإنساني الذي تعلق بالحقيقة المطلقة ، فكانت كل مقاصده تابعة لذلك التعلق .
قال تعالى يخاطب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم :
(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) .
قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى :
(أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء ، فالمريد في أول سلوك الطريق يحتاج إلى إحكام النية ، وإحكامُ النية تنزيهها من دواعي الهوى وكلِّ ما كان للنفس فيه حظٌّ عاجل ، حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى) .
عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله : رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا أجر له)
فأعظم ذلك الناس وقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك لم تفهّمه فقال يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال :
(لا أجر له)
وقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الثالثة فقال له :
(لا أجر له) (أخرجه أبو داوود .)
وليس معنى الحديث أن الغازي في سبيل الله لا يجوز له أخذ الغنيمة ، لكن معناهُ أن مقصودَ ذلك الغازي حينما تعلق بالمادة ؛ نزل من المقصود المقبول الذي ينبغي أن لا يكون معه مقصود آخر .
قال تعالى في كتابه الكريم :
(هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) (سورة غافر .)
يقول ابن عطاء الله رحمه الله تعالى في حكمه :
(أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع)
وهل يصح أن يكون الإنسان عبداً لغير ربه ؟ إذاً فلا يصح أن يكون مطمعه في غير ربه .

وبعد ذلك :
فإذا صح مقصود الإنسان وارتقى عن إرادته المادية المجردة ، فما هي الخطوات العملية في الطريق إلى كمال إنسانيته وقربه من ربه ؟
والجواب هو أن الطريق إلى القرب :

- **علم**
- **وعمل**
- **وتخلق**
- **وتحقق .**

أما العلم الذي هو شرط في طريق القرب :
فهو العلم بما يجب عليه معرفته من العقائد و وأحكام الدين العملية التي فرضها الله تعالى عليه التي منها :
العبادات ، وما يُحتاج إليه من المعاملات ، و أحكام الحلال والحرام .
وبعد العلم العمل :
فيترك ما حرمه الله سبحانه وتعالى ، ويفعل ما أمره الله تعالى به ، وما أذن له بفعله ، ويحافظ على الصلاة في الجماعة ، ويترك صحبة قرناء السوء ، ويحاسب قلبه على الميل إليهم ، ويصحب من من اشترك معه في هذا المقصود .

ومعنى الصحبة راحة القلب إلى من يصحب ، أما مشاركة الناس في أعمالهم ومعاملاتهم ودعوتهم إلى الله تعالى فليست بصحبة ، إذ الصحبة ما أثَّر في القلب ، فإذا وافق قلبُه صاحبَ منكرٍ في منكره كان صاحباً له ، وإذا أنكر بقلبه عليه فليس بصاحب ، فأصل الصحبة إذاً توافقُ القلوب .
حتى السالكون لطريق القرب إن هم اجتمعوا مع توافق القلوب حصلت لهم الصحبة الصالحة ، وإن هم اجتمعوا من غير توافق في القلوب لم تحصل لهم تلك الصحبة ، مع أن أجسادهم مجتمعة في مكان واحد .
ومن خير ما يجتمعون عليه ذكر (لا إله إلا الله) .
أخرج الإمام أحمد والطبراني والبزار عن شداد قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم غريب قلنا لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال :
ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا ساعة .
ثم وضع صلى الله عليه وسلم يده ، ثم قال :
الحمد لله ، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة ، وأمرتني بها ، ووعدتني عليها الجنة ، وإنك لا تخلف الميعاد .
ثم قال :
ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم .
قال الهيثمي رحمه الله في مجمع الزوائد رجاله موثوقون .
وأخرج أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
جددوا ايمانكم أكثروا من قول لا إله إلا الله .
قال السيوطي في الجامع الصغير حديث صحيح .
وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم :
جددوا إيمانكم
قالوا يارسول الله وكيف نجدد ايماننا قال :
أكثروا من قول لا إله إلا الله "

ومع العمل التخلق :
وذلك بالتواضع للناس وترك الترفع عليهم ، ويكون مع إخوانه على نفسه ، و لا يكون مع نفسه على إخوانه ، وينسب العيب إلى نفسه ولا يجرح أخاً بكلمة يكرهها أو فعلٍ يسيء إليه به .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني .)
وقال صلى الله عليه وسلم :
ما يوضع في الميزان يوم القيامة أفضل من حسن الخلق ، وإن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم (رواه الطبراني وأبوداود والترمذي .)
وفي رواية :
وإنّه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك جهنم
قال تعالى :
(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الحشر (9).
فإذا صبر على شدة إخوانه ، وشكر جميل فعلهم معه ورضي باجتماعهم على ما يرضي الله تعالى كان ذلك باباً لقبوله في معاملة الله تعالى فيصبر عند ذلك على الشدة التي ينزلها الله تعالى به ، ويشكر جميل فعله معه ، ويرضى بما رضيه له ، فينتقل عندها من التخلق مع إخوانه في معاملتهم إلى التخلق مع ربه في معاملته وهو الباب الذي يدخل منه إلىالتحقق :
والتحقق مبتداه مراقبة الله تعالى ، وهي أن يستشعر الإنسان رؤية الله تعالى له في كل حال.
قال تعالى :
(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) الشعراء (218).

وقال :
(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) العلق (14).
فإذا تحقق لهذا الإنسان مقام المراقبة يكثر عندها من ذكر اسم الله تعالى في معنى :
(وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا) المزمل (8 – 9).
عندها يصفو باطنه عن كل كدر ويتعرف إلى ربه ، فيذوق معنى محبته وقربه ، ويكون الكون في نظره كالعدم من شدة إشراق أنوار التوحيد على قلبه .
وحين يرجع إلى رؤية الكون بعد ذلك يراه ثابتاً بإمداد الله له .
وفي هذا الحال تستعر المحبة ، ويصفو الوداد ، ويفهم كلمات المحبين .

ومن كلمات المحبين أختار لك أيها القارئ من أنغام الرومي مولانا جلال الدين ..
فلا تسمعها بأذنك واسمعها بقلبك :
في الفراق يكون العاشق مثل اسم خالٍ من المعنى .
ولكنَّ معنى العشق يستغني عن الأسماء .
أنت ـ أيها الحبيب ـ بحر وأنا سمكة ، فأمسك بي كما تشاء .
أرأيت سمكة شبعت من هذا البحر .
أرأيت عاشقاً شبع من هذا العشق ؟

إذا قال دلالاً امض من هنا ..ماذا تريد مني ..
فسأمثل أمامه حاملاً السيف وأحني عنقي كالقربان وأقول له :
قد أكون مزعجاً فاقطع عنقي عمداً .
وأقول : أنت روحي ومن دون روحي لا أعرف كيف أعيش ..
وأنت عيناي ومن دونك ليس لدي عين تبصر .

الأغاني قش على وجه البحر ..
ولا يظهر جوهرٌ على سطح البحر
الأغاني كلها ليست سوى فرع الشوق ..
والفرع والأصل ليسا متساويين .
أغلق فمك وافتح نافذة القلب ..
وبذلك الطريق كن مغنياً للأرواح .

أمس أعطيتُ نجمة رسالة إليك ..
قلت لها أبلغي تحياتي لذلك الوجه من القمر المنير .
سجدتُ وقلتُ احملي هذه السجدة لتلك الشمس التي بنورها يتحول الصخر إلى ذهب .
قلت لها انقلي عني أخباراً للحبيب الذي يفرح بسفك دمائي .
تأرجحتُ يمنة ويسرة لكي يهدأ طفلُ قلبي ..
والطفل ينام حين تهزُّ له السرير ..
فأعط طفل القلب حليباً وحررنا من الدوران والتأرجح ..
يا من كلَّ لحظة تسعفُ مائة مسكينٍ مثلي .
اهـ المختارات من الأنغام الرومية .

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .